١ ـ مضحكات مبكيات

للاســـتاذ صلاح الدين المنجد

[حديث أنقله إلى صديقي النابغة العالم الأستاذ علي الطنطاوي].

(صلاح الدين)

كنا أربعة نفر ، ملأنا عمامنا الرسمي ، فانطلقنا نستروح نسمات الربيع الدافئة المعطرة في غوطة دمشق ، جنة الدنيا ، وكنا نحسّ ، وقد ابتعدنا عن المدينة بجمع الشقاق والنفاق ، أننا نستطيع أن نتكلم ... فلا رقيب يحصي أنفاسنا ونظراتنا وكلماتنا وليس من يطالبنا بالنفاق باسم اللباقة والتمدن والصانعة . فقلت لصاحبنا الفتى : لقد هان أمر اللغة والأدب بهؤلاء الذين عادوا وقد لقنوا اللغة على الأعاجم من ذوي الرطانة والعطانة ؛ لقد صادفت اليوم في طريق طالباً في الجامعة فحدثني حديثاً أهمّني ... حدثني أن أستاذه قرأ عليه نصاً فيه « لبس ثوب الحِدّاد » فقرأها « الحَدّاد » فلما قال له الطالب : إنها الحِدّاد يا أستاذ ! انتهره وأصر على أنها الحدّاد . ثم ساق الأستاذ على ذلك دليلا تمسك به فقال هكذا أخذناها عن المستشرق فلان ... أتعلمون من هو هذا المستشرق ؟ إنه أوسع أهل الاستشراق علماً ، وأذكاهم فهماً ، وأفصحهم لساناً . وقوله لا يرد لأنه ثقة ، ضابط ، محرر .

قلت : لقد مُسخ الزمان ، فجاء بهؤلاء المسوخ الذين يقولون هكذا أخذناها عن المستشرق فلان . ليت شعري إذا كان الأستاذ هكذا ، فكيف يأتي التلاميذ ؛ وليت شعري أما درى من انتقى هؤلاء ليكونوا في الجامعة أنهم يهدمون اللغة ويهتكون الادب ؟

فقاطعني صاحبي ، وقال لا تلم هؤلاء إذا أخطأوا . ولا تعجل عليهم بنقدك إذا تكبروا ... فما كبرياؤهم غير ستر لجهلهم . إنهم ليسوا بشيء ، ولو بانوا رتبة الوزارة . فما يزال في الناس ناس يعلمون أن الفضل لأولي العلم ، لا لذوي الجهل . لقد غشهم من أوفدهم لتلقي المعرفة عند ذوي الرطانة ... فعادوا يغشّون الطلاب بجهل فاضح ، والناس بشهادات أزياف كواذب .

قال أكبرنا : ولكنّ هذا ليس بالأمر العجب . فهناك أعجب وأغرب ، ألم يأتكم نبأ ذلك الذي عاد من أوربة ، كما تعود هذه الجماعة الضعاف قلوبها ، السخيفة عقولها ، شغفاً بأقوال المستشرقين ، مدلهّاً بمذاهبهم ، فجعل نفسه من شباب محمد ، فطنطن صحبه بعلمه وفضله ، ثم أخرج كتاباً ، فإذا هو يطعن فيه على محمد ، فيختلق ويفتري ، ويدس ويعاري ويأخذ بالنبي إلى اليمن ، ويقرئه التوراة والإنجيل ويجمعه إلى الرهبان والأحبار ثم يقول إنه ألّف القرآن .

فما أدري ممّ أعجب ؟ أأعجب من هذا العلم الذي شداه ، أم أعجب ممن يفتري على محمد ، وهو من شباب محمد ؟

قال صاحبي : لا تلم هذا أيضاً . إنما هو بناء لقنوه الشر فأعاده . إنما لُمْ أبويه اللذين أغفلا تربيته وسددا خطواته وعرفاه من هو محمد . ليت شعري أتطمع من المستشرقين أن يفعلوا غير هذا ؟ إنه ليكفيهم أن يغرسوا في نفوس من يلقونه من ناشئة المسلمين الشك ... الشك في الدين ، والكتاب ، واللغة ... فإذا شككت وكنت من الضعاف الإيمان ، زلّت بك القدم فهويت . لا تلم هذا ، بل لُمْ أولئك الذين لم يحسنوا تلقين الدين ، ولا تعليم التاريخ ، ولا انتقاء الأساتيذ ...

قال ثالثنا : ولكنّ عندي ما ليس عندكم . فقد حُدّثت عن واحد من هؤلاء ، هواه مع الشيوعيين ، ومعدود في المسلمين وقد أشرف على الأربعين ، إنه عاد من أوربة يحمل دراسة عن كنيسة من كنائس فرنسة ، نال بها الدكتوراه . فبلغني من صفته أنك إذا رأيته يمشي في الطريق ، وهو يتثنى ، وأبصرته وقد نتف حاجبيه ، وصفّف شعره ، حسبت أنه عانس تابس البنطلون . دعوه يوماً إلى المسجد الأموي ليحتفل بمولد الرسول . فنظر في بطاقة الدعوة شزراً ، ثم غمز الجرس فاستدعى كاتباً عنده . فلما أتاه قال له :

أما تزالون تزعجون نعالكم إذا دخلتم المسجد ؟

فضحك الكاتب لهذا السؤال ، وحدق بالسائل يريد أن يعلم أهو في الجد أم الهزل . فهذا سؤال لا يسأله مسلم ... فأجابه .

— نعم يا سيدي .

قال: ومتى تتعمدون ؟ لقد غبت عن دمشق تسعة أعوام كاملات